

خاطرات فی صفات المربری



سعیء بن محمد آل ثابت

الألوكة

www.alukah.net

إن هذه الآيات وغيرها تُترجم لنا الوجود الحقيقي للنبي -صلى الله عليه وسلم- مع من حوله، فالتزكية بمعنى التأديب والتربية، واللين من أجل التراحم في التعامل، وتلاحظ مدح الله للنبي ومن معه وكيف هم، والناظر لسيرة المصطفى وموروثه من السنة يجد هذا العيش التربوي، وقد دعى الرسول -صلى الله عليه وسلم- لذلك: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم" صحيح الجامع، وحين كان النبي موجوداً مع الصحابة كان هناك التعليم والتوجيه، ومن ثم رؤيت الابتسام، وعُني بالمبادئ، وشوهدت الغضبة، وتُمنع في الهدى، وأبتعد عن المشين، وهذا من نتاج المعيشة التربوية بل كان النبي يجلس مع أصحابه ويستمتع حديثهم في الجاهلية ويستمتع لبعض أشعارهم ولم يُر إلا متبسماً، تجده يمازح بعضهم كما قال عن زاهر -رضي الله عنه: "من يشتري العبد؟"، بل وأدلف بعضهم على رحله، وعلم بعضهم بانفراد -عليه الصلاة والسلام-، ولم يتوقف ذلك على الكبار، بل حتى الصغار حين ذكر أنس -رضي الله عنه- في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يُخالطهم، وقال أنه قال لأخي وكان معه طائر صغير: "يا أبا عُمير ما فعل النُّعير"، وهذا أحد الصغار يأكل مع النبي في صحفته، وقد وجهه النبي لآداب هي العُليا في آداب الطعام. كان عليه الصلاة والسلام مشاركاً لأصحابه في أحزانهم، وأفراحهم، وكان يُشاركهم في الغزوات، وشاركهم حفر الخندق، ويسأل عن حالهم، ولم ينسهم من دعائه، وإن لزم الأمر عنف بعض أفعالهم.

وهنا قد وجد الصحابة من يستمع لهم، ويجاورهم، ومن بابه مفتوح لهم.

وأقول بئس المرئي! الذي تتكلف الأرواح وصوله وهو قريب.

أين بعض المرين من موقف حنظلة حين قال نافق حنظلة ولقي أبا بكر فما كان إلى أن ذهباً عند الرسول صلى الله عليه وسلم، ولولم يكن بابه مفتوح لما لجوه. وكان حتى الأعراب يجدونه، والصغار يلقونه، وأصحابه يُعايشهم ويُعايشونه.. نعم التربية والله، ونعم التزكية!

* وإن للمعايشة أثراً عظيماً في حياة المترى، ومن تلك الآثار:

١. هناك ما يُسمى بالمنهج الخفي الذي يتعلمه المتلقي من خلال الأخلاق والطباع وردود الأفعال التي يُشاهدها، وذلك دون علم من المرئي، وهذه نجدتها متجسدة في بعض ما كان يرويه الصحابة عن رسول في أقواله، وأفعاله، ولبسه، وردود فعله، بل إيماءات وجهه الشريف -عليه الصلاة والسلام-.

٢. تجعل هناك طرقاتاً وضيئة متصلة مع المري حيث تسهل الاستشارة، ويظهر الاقتناع بمبادئ المري التي يدعو لها، وتصنع متنفساً للمرتبي لا يجده إلا عند المري، وهنا نذكر ابن القيم-رحمه الله- حين يذكر عن نفسه ومن معه أنهم إذا تغيرت عليهم أنفسهم ذهبوا إلى شيخ الإسلام-رحمه الله- فلا يرجعون إلا وقد تغيرت نفوسهم وزاد إيمانهم، وهذا برهان في أن أبواب العلماء حينئذ كانت مُسرحة لربي العلم وطلابه.

* ونختتم الموضوع ببعض الإشارات:

١. على المري أن يكن صاحب قدوة في تعايشه، فلا يهبط إلى درجة السفاهة وتكوين القيم مما يجعل هناك تماهي للأثر المرجو، ومن هذه السفاهة (إضاعة الوقت فيما لا فائدة فيه، اللهو الكثير، كثرة التنازلات، الصحبة الفردية المملة، وعدم الانضباط مع المردان) وغير ذلك مما يجعل هناك عواقب وخيمة، ومن شأن المري القسط في كل شيء، والحذر من الشبهات.

٢. على المري ألا يتكلف العيش مع أحبته، ومما أعجني من خواطر أحدهم، حين قال: لم يكن للنبي-صلى الله عليه وسلم- تلاميذ وطلاب، وإنما أصحاب.

أيها المري لننظر لأحبابنا كأصحاب ثم ليكن التوجيه والعيش على ما رأيناه من القدوات، وسمعناه من السراة.

رابعاً: امتلاك مفاتيح القلوب:

لقد كان من أبرز سمات المري الرباني أن يكون خير من يرقى اسمه حقيقة لا حكماً في قلوب الناس، إذ هو يسير على خطا المصطفى-صلى الله عليه وسلم- الذي قال الله جل وعلا عنه: "فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" آل عمران: ١٥٩، وإن من أسرار التأثير وحب الناس للمري المؤثر تمكنه من الوصول لقلوبهم عبر أبواب كثيرة منها:

١. حسن الخلق؛ قال صلى الله عليه وسلم: "إن من أحبكم إلي و أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً وإن أبغضكم إلي و أبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون قالوا: يا رسول الله ما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون". حديث صحيح أنظر صحيح الجامع رقم ٢٢٠١، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الرجل ليدرك بحسن خلقه، درجات

قائم الليل صائم النهار" رواه الألباني في صحيح الجامع. وبذلك يظهر أن سمة حسن الخلق، ورفق التعامل هي من الدين بلا شك، وإنها مفتاح الداعية الأزكى لقلوب الخلق.

٢. الرفق واللين؛ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه" رواه مسلم.

٣- الحب؛ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا مُعَاذُ، إِنِّي أَحْبَبْتُكَ، فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ" رواه أبو داود والنسائي. ولذا فإن المرابي الذي يوصي ويعظ ويرشد ويوجه من قلب يمتلي حبا صادقا للمدعو لا شك أن ذلك مدعاة للقبول والاستجابة، والمشاهد لبعض حالات العصيان والتمرد عن بعض توجيهات وإرشادات المرابين تُرجع بعض أسبابها إلى وجود فجوة عاطفية بين الملقى والمتلقي، وهذا ينافي منهج الرسالة المحمدية.

٤- الهشاشة والبشاشة؛ (وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هاشأً باشأً لا تلقاه إلا مبتسماً). وهذا هو الرسول عليه الصلاة والسلام على عظم مسؤوليته، وضخامة همه، وثقل حمل الرسالة على كاهله وجده من حوله هاشأً باشأً مبتسماً لا فاحشأً ولا متفحشأً.

٥- التحفيز وأن يكون لماحاً؛ وهذه أداة إبداعية للمرابي الناجح إذ تجده لماح لمن معه، محفزاً لهم إن رأى ما يدعو للثناء، ويدل على ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: (قلت: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث: إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من نفسه). وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج بن عبد القيس: "إن فيك خصلتين يجبهم الله ورسوله: الحلم والأناة"، ولا يخفى على المرابي بعضاً من الضوابط في ذلك: كتعيين الفعل المثني عليه، وعدم المبالغة في الثناء والإطراء، والإتيان بالثناء في وقته ومكانه المناسبين.

٦- الاهتمام بمن معه لاسيما في المشاعر والاهتمامات؛ في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجابر: يا جابر! أتزوجت؟ قال: نعم. قال: "بكرأ أم ثيبأ؟ قال: ثيبأ، قال: هلا بكرأ تداعبها وتداعبك؟ قال: إن لي أخوات وقد قتل أبي - يعني: في أحد - وترك عندي سبع أخوات فأردت امرأة تقوم على شئونهن، فسكت عليه الصلاة والسلام، ثم قال: يا جابر! أتبيعي جملك؟ قال: ما ترى يا رسول الله! فشراه بأوقية، فلما ذهب اشترط جابر حملانه إلى المدينة، قال:

فدخلت المسجد فصليت ركعتين -وفي لفظ: قال له صلى الله عليه وسلم: صلّ ركعتين- فلما أتى قال لبلال: انقده الثمن، فأعطاه الأوقية، فولى جابر فأخذ الثمن وترك الجمل، قال: يا جابر! تعال خذ الجمل والثمن، فساق الجمل والثمن. إنها التربية الحقة حين يهتم المرابي بشؤون من معه الدينية والدنيوية، إذ لا نشاز في ذلك، وبئس ما نرى من جفاء بعض المرابين في هذا الجزء، حيث لا يولون اهتمامات من معهم (الدنيوية) أي اهتمام كالزواج، والوظيفة، والدراسة، وغيرها.

٧- الوقوف في الملمات والمصاعب؛ وهي التي لها أثرها وأجرها -بإذن الله-، وفي الصحيح قال عليه الصلاة والسلام: "من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة"، وهذا سلمان الفارسي لما أراد أن يعتق نفسه ولما لم يجد ما يعينه في فكك نفسه قام معه عليه الصلاة والسلام، وقال للصحابة: "أعينوا أحاكم"، وقد شارك الصحابة مع نبيهم في ذلك حتى كوتب أخوهم من سيده.

٨- التهنة والمسارة في المبشرات المفرحات؛ ونعم المرابي الذي يفوز دائماً بالمسابقة في إفراح، وتبشير من معه لاسيما مع اهتماماته الخاصة، إذ ذلك لا يُنسى مهما عبر الزمان، ونذكر في ذلك قصة توبة كعب بن مالك التي رواها بنفسه، وحين سمع بتوبته اتجه لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ونستمع له ليكمل لنا الشاهد المراد: (..قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، ووالله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله قال لا بل من عند الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه...)، وهنا ننظر ما هو الأثر الذي تركه طلحة-رضي الله عنه-، ثم نشاهد المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي يبشر كعب، وقد فرح بذلك، بل لقد وجدوا الصحابة ذلك دوماً وعرفوه في مريهم، فهو معهم في أفراحهم، وأتراحهم. وهذا ما يتطلب على المرابي حين يُنجز ذلكم المترابي أحد المراحل التعليمية، أو يُوفق لحفظ القرآن، أو يُكفي من مصيبة، أن يكن المرابي موجوداً تلك اللحظة الفارقة ليشارك، وبيارك.

٩- الكلمة الطيبة؛ وقد كانت السمة الخالدة الذي يلقاها من لقي الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيعيد الحياة لروحه من جديد، ولو في محنة أليمة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "والكلمة

الطيبة صدقة"، وها هو يمر بآل ياسر وهم يُعذبون من قبل قريش، ويقول: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة". إن للكلمة الطيبة، والخاطرة العاطرة أثرها الجميل في القلب فيما تنفيس أو تثبيت أو إسعاد. إنها خير لا تأتي إلا بخير فحري بالمربي أن تمتلئ خزائنه بذلك، فيكثر محبوه ويقبل شائقوه.

١٠- التقدير والاحترام والاهتمام؛ ففي الحديث أنه _صلى الله عليه وسلم_ كان إذا حدث أحداً جعله تلقاء وجهه وأصغى إليه وأنه إذا أمسك بيد أحد لم يكن ليتركها حتى يكون الآخر هو الذي يترك يده، وأن الأمة كانت تأخذ بيد رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ وتذهب به حيث شاءت، وأنه استجاب للحباب بن المنذر في رأيه في مكان التحميم ليلة بدر، واستجاب لنصيحة سلمان يوم الخندق، وأنه _صلى الله عليه وسلم_ لطالما يذكر قيمة أصحابه، ويشكر أفعالهم، ويعرفهم قيمة دورهم، ويثمن سلوكياتهم النبيلة فيقول لعثمان لما جهز جيش العسرة: "لا يضره ما فعل بعد اليوم"، ويسمي خالدًا: "سيف الله المسلول"، ويقول عن أبي بكر: "لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرححت كفة أبي بكر"، ويقول عن عمر: "لو أن نبياً بعدي لكنت أنت يا عمر". إلى غير ذلك من دلائل تقديره لأصحابه وتعريفه لأهميتهم عنده وبين الناس.

١١- الهدية؛ وكم للهدية من أثرها الباقي في النفس من حب ووداد، وحسن عشرة، قال - عليه الصلاة والسلام -: "تهادوا تحابوا" رواه البخاري في الأدب المفرد. وإن من حسن الهدية أن تؤتى في وقت ومكان مناسبين، وأن يُحملها المهدي خاطرة لطالما يريد إيصالها للمهدى له، وبذلك يكن للهدية معنى، ويسري أثرها.

١٢- حفظ الأسماء؛ والنداء بأحب الأسماء؛ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ قَالَ أَحْسَبُهُ فَطِيمًا وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَا فَعَلَ النَّعِيرُ نُعْرًا كَانَ يَلْعَبُ بِهِ فَرَجْمًا حَضَرَ الصَّلَاةَ وَهُوَ فِي بَيْتِنَا فَيَأْمُرُ بِالْبِسَاطِ الَّذِي تَحْتَهُ فَيُكْنَسُ وَيُنْضَحُ ثُمَّ يَتَوَضَّعُ وَيَقُومُ وَنَقُومُ وَنَقُومُ خَلْفَهُ فَيُصَلِّي بِنَا) أخرجه البخاري في صحيحه.

١٣- الإيجابية؛ وخلق روح التنافس والإقدام؛ إذ النفس البشرية اعتادت أن تلتئم على من تجد ذاتها عنده، وتأنس حين تراه، وتعشق ردة فعله في الأزمات، وهذه من أجل صفة القادة والعظماء، وقد روي في غزوة مؤتة حين عاد جيش المسلمين، وخرج له الصبية والنساء مرددين يا فرار، يا فرار، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله عز وجل". وروى الإمام أحمد في حديث ساقه عن عبد الله بن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله،

فخاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة قتلنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله فإن كانت لنا توبة، وإلا ذهبنا. فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج، فقال: "من القوم؟" قال: قلنا نحن فرارون. فقال: "لا بل أنتم الكرارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين".

١٤- فن الإنصات والاستماع؛ وهذا الفن هو فن القائد الناجح، والمربي البارِع إذ به يفهم النفوس، ويترجم الأفعال، ويعي المطلوب، ونذكر موقف عتبة حين أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- ليُحاجه فتكلم عتبة حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستمع منه قال: "أفرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم. قال: "فاستمع مني" وأكمل النبي حديثه كما في الحديث المعروف، وهنا نجد أدب النبي الجَم في استماعه، وندائه خصمه بأحب الأسماء.

١٥- المشاركة في المهمات؛ و من أبرز خصال المربي أن يشارك أصحابه الأعمال، وتنفيذ المشروعات، والمهام الميدانية، وفي غزوة الخندق تم تقسيم المسؤولية بين الصحابة بحيث تولى كل عشرةٍ منهم حفر أربعين ذراعاً، ثم بدأوا العمل بجمّة وعزيمة على الرغم من برودة الجوّ وقلة الطعام، وزاد من حماسهم مشاركة الرسول -صلى الله عليه وسلم- في الحفر ونقل التراب. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقضون الأوقات بتريد الأشعار المختلفة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يشاركونهم في ذلك، فكانوا يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً = على الجهاد ما بقينا أبداً

وهو يجيبهم بقوله:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان -صلى الله عليه وسلم- يردّ أبيات عبدالله بن أبي رواحة رضي الله عنه:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا = ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينتنا علينا = وثبتت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا = وإن أرادوا فتنة أئينا

ومن هذا النموذج تبرز هذه الخصلة في روح المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، والتي سارت بها الركبان في حديثهم عن تواضعه، ومشاركته أصحابه همومهم، وأعمالهم.

١٦- العفو والصفح؛ المرابي القدوة يجد من معه سعة في صدره، وصدرة بستاناً ملؤه الحب، وحسن الظن، والعفو، إنهم لا يجدونه نداءً لهم في خصوماتهم، ومشاكساتهم، وزلاتهم، إنهم يرون قول الله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" الأعراف: ١٩٩. متمثلاً في قدوتهم ومعلمهم، و يدل على ذلك من السنة قول جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك"، وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراي غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذب بردائه جبذة شديدة قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء. هذا هو العفو والصفح الجميل إذ يسلم صاحبه من السباب والشتم والنبز والمنة، وقد حظي بالحلم والعقل من كان هذا مذهبه.

١٧- الاعتذار لمن من له حق؛ وفي ذلك تظهر خصلة الشجاعة، والصدق فيما يدعو له المرابي، وهو اعتذاره ورجوعه عن الخطأ إذا أخطأ. وإن النفس البشرية غير معصومة، وهي معرضة للزيف والخطأ الشيء الكثير، لذا من المستحيل أن يعيش المترابي مع مريبه دون أن يسيء المرابي، أو يخطئ، أو يجور أحياناً، ولكن هذه الأخطاء تتقازم في عيني المترابي حينما تجد مريباً ربانياً، قليل الخطأ سريع الاعتذار صادق النصيحة، وتذكر موقف النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر حين أخذ يُعدل الصفوف بقدح في يده فضرب بطن سواد بن غزيرة وقال: "استو يا سواد" فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتني، فأقدني، فكشف عن بطنه صلى الله عليه وسلم وقال: "استقد" فاعتقه سواد، وقبل بطنه، فقال: "ما حملك على هذا يا سواد؟" قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير.

١٨- الاعتراف بحقوق وجميل الآخر؛ مهما صغر حقه تجاهك، وكبر حقه عليك. واتضح ذلك جلياً حين وجدوا الأنصار في نفوسهم شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمته، فدعاهم وخطب فيهم، وكان مما ذكر خطبته: "...والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم: جئنا طريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك، وخائفاً فأمناك، ومخذولاً فنصرناك" فقالوا: المنة لله ورسوله..".

١٩- المزاح اللطيف، والدعابة المرحية؛ والمزاح والدعابة (اللطيفة) من طبيعتها تحبها النفوس؛ لأنها تسعد الخواطر مهما تكدرت، ومن آثارها المحمودة أنها تهيء النفس لاستقبال أي شيء، وتجعل

هناك دفقاً من المشاعر المطمئنة تجاه صاحبها لاسيما إذا خلت من التفحش، والمبالغة، والقدرح في الذوات، وهذا من خلق المصطفى ﷺ، فعن رجلٍ من أشجع يُقال له: زاهرٌ بنُ حرامٍ، قال: وكان رجلاً بدويّاً، وكان لا يأتي النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أتاه إِلا بِطُرْفَةٍ أَوْ هَدِيَّةٍ يُهْدِيهَا لَهُ، فَرَأَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسُوقِ الْمَدِينَةِ يَبِيعُ سِلْعَةً، وَلَمْ يَكُنْ أَتَاهُ، فَأَتَاهُ فَاحْتَضَنَهُ مِنْ وَرَاءِ كَتِفِهِ، فَالْتَمَتَ وَأَبْصَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقبَّلَ كَتِفِهِ، وَقَالَ: "مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ؟"، قَالَ: إِذَا تَجِدُنِي كَاسِدًا، قَالَ: "وَلَكِنَّكَ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رَيْحٌ". فحري بالمرابي أن يكن ذو نفس مرحة تملك روح الدعابة، وهو يتعبد الله بذاك إن أخلص النية.

٢٠- الدعاء؛ وهو من أجل الأعمال، وأفضل الهبات، ولا يمنع أن يكون ذلك ظاهراً للمتربي، وإن أخفاه فلا شك أنه أرجى، و قد روي عن ابن عباس -رضي الله عنه- أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بيت ميمونة، قال: فوضعت له وضوءاً من الليل، فقالت ميمونة: يا رسول الله وضع لك هذا ابن عباس، فقال: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل".

وثمة سبيل للأولياء يعطيه الله من يشاء فيسقط لعبد القبول وينسأ له الأثر، وذلك أن يكون حبيباً عند الله فيحبه الله فيحبه أهل السماء، فيحبه أهل الأرض. وإن ما سبق ذكره وسائل نبوية، وإرشادات محمدية لا غنى للداعية المرابي عنها وعن غيرها الاطلاع عليها، ومن ثم ترجمتها واقعياً في الناس، وهي بمثابة الإشارات، وإلا ففي جُعب السنة النبوية ما هو أكثر من ذلك، ولكن حسب القطن الحُرَّ إشارةً تهدية الطريق. أسأل الله أن يوفقنا لكل خير، وأن يطرح لنا القبول في خلقه، ويجعلنا مباركين أينما كنا.

خامساً: معرفة خصائص النمو والأنماط الشخصية:

يتميز المرابي بمحافظته بكل من معه لا سيما أن يكون على دراية ببعض ما يتعلق بخصائص المرحلة العمرية (الدينية، النفسية، الجسمية، العقلية، الانفعالية، الاجتماعية، اللغوية، الجنسية)، وما تتطلبه وتستدعيه شخصية المتربي، من ثم يكون هناك بُعداً آخر للمرابي مع المتربين، في حيثيات كثيرة، منها:

١. معرفة العوامل التي تؤثر في النمو والسلوك، وتمييز الحاجات لكل مرحلة. وذلك يعين المرابي ليساعد المتربي في تهيئة البيئة الملائمة في نموه الطبيعي، وترقية سلوكه بالتركية الربانية الحسنة. والواقع يشهد جهل بعض المرابين بالحاجات المهمة لأي شخص لاسيما ذلكم المتربي من حاجات نفسية

كالعبادة والأمن، واجتماعية كالصحة والمسؤولية، وحاجات ثقافية كالاطلاع وغيرها مما يخلق وهنا بارزا، وقصورا واضحا في حياة المتربي، ومرجع ذلك القصور لجهل المرابي. إن التعرف على الحاجات والعوامل المؤثرة في السلوك والنمو، تجعل من المرابي خير من يجيد التعامل مع المتربي وفق تلك العوامل بنضج ووعي.

٢. التعرف على خصائص النمو تهيء المرابي لمستجدات النمو، وهنا نجد مثالا عن المراهق الذي يشهد نموه الجسدي تغيرات وطروءات سريعة وجديدة عليه تجعل منه أحيانا مكمنا للسخرية في صوته، أو عرضة للشهوات إثر نشوب نار الشهوة في عروقه، أو ظهور شعر الإبطن والعانة والذي يجهل بعضهم التعامل الصحيح مع ذلك، فحين وجود المراهق في هذه المرحلة وهو بجانب مربٍ واعٍ بذلك يجعله يمر بنفق المرحلة دون اكتراث وصراع وأزمات، علاوة أنها قد تكون ترقية له في سلم الإبداع والتميز.

٣. التوصل إلى أفضل طرق التربية والتعليم التي تناسب المرحلة العمرية، فمرحلة الطفولة مثلاً تناسبها المحسوسات، وشأن الحفظ فيها أولى، وأما المراهق فبطبعه يجب الاستكشاف وإثبات النفس، وتميل نفسه للعبادة. إذا عُلم ذلك، لزم المرابي أن يبحث ما يناسب من الطرق والأساليب الناجعة في التوجيه والتعليم.

٤. التعاطي مع كل مرحلة، وكل شخصية بحسب احتياجاتها وعمرها العلمي أو النفسي أو الذهني.

٥. فهم شخصية الفرد مستقلاً عن أقرانه. وثمره ذلك الإحسان في الدعوة والتوجيه الفردي. إن إدراك الفروق الفردية بين المتربين، وتلمس الصفات التي تسبق عمرها، تعين على إدراك ما قد يفوت على المتربي حصوله في مراحل عمره المبكرة فيكون هناك التعويض، وإضفاء البرامج الكافية لذلك.

٦. تعين على فهم المشكلات النفسية والعقلية والاجتماعية لكل مرحلة، ومن خلال ذلك يُدرك أن بعض المشكلات في كل مرحلة تكون في حيز الطبيعي، وغيرها لا تلائم المرحلة مما تستدعي كم من الاهتمام بهذه المشكلة.

هناك مراجع رائعة:

- كتب حامد عبدالسلام زهران. لاسيما كتاب علم نفس النمو. وغيره.

-المراهقون لعبدالعزيز النغمشي.

-كتاب (نماء) بإشراف الشيخ محمد الدويش. وفيه معايير رائعة للمراحل العمرية منذ الطفولة وحتى المرحلة الجامعية يسير وفقها المربي، ويرسم خطاه وفقها.

سادساً: حسن التخطيط وإجادة التقويم:

من صفات المربي الناجح أن يكون على دراية تامة بالتخطيط، ومتطلباته، وآلياته، وكذلك حسن إعداده وتنفيذه، والإجادة في تقويم التخطيط.

التخطيط التربوي هو ذلك العمل التربوي الذي يُحقق لنا منتجاً تربوياً وفق أهداف وأعمال مدروسة، والتقويم في اعتباره جزء من التخطيط فإنه يقوم على إخراج نتيجة العمل مع إبراز جوانب القوة فتُعزز، ويُظهر جوانب الضعف فتتم معالجتها وفق علاج سلوكي تربوي.

*وإن مما يجعل لهذه الصفة خصوصية في المربي اعتبارات كثيرة، منها:

١. أن السيرة النبوية المطهرة كانت نموذجاً بارزاً في هذا الجانب، ومن رأى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- في هجرته، ومُضيه لغزواته، وكذلك دعوته القبائل، واجتماعه دوماً مع كبار أصحابه، ثم تعزيزه للمواقف الرائدة، وتعديله للسلوكيات الخاطئة بأبهى طريقة، ومتابعته أحوال أصحابه، ومعرفته بهم معرفة جيدة تكفل له عليه الصلاة والسلام أن يتفهم ما يحتاجونه، وما يفتقدونه، وما هو يهمهم، وعلى هذا فإن بروز ذلك في الرسول المربي يجعلنا نوقن أن تربيته لم تكن ضرباً من العشوائية. إنما تربية صالحة وفق منهج رباني قويم.

٢. قصور بعض البرامج التربوية على فترة زمنية محددة أو مكان معين، فلا تستوفي سائر العام ولا تمتد مع المتربي في أي مكان. فأثرها قاصر على زمان ومكان محددين، وهذا محل إشكال لا سيما في الأعمار المبكرة.

٣. طرود الصوراف على بعض المربين، مما يجبره على الغياب أو ضعف المباشرة للمتربين، فيحتم ذلك الاهتمام بالخطة التي تتكفل بالمتربي حيال غياب المربي.

٤. ضعف المنتج التربوي لدى البعض، وتماهي مواهبهم، وتدني مستواهم العلمي، والتربوي، وهذا راجع أنهم قد يستلهمون التربية بالطريقة الجماهيرية العامة فلا هناك خطة تضم تربيتهم على مدى الفترة التي سيقضونها (احتمالاً) فمثلاً سيقضي ثلاث سنوات.. لا بد أن تكون هناك خطة فيها برامج ذات أهداف تتلائم مع المتربي من جميع جوانب شخصيته (الإيمانية، العلمية، الاجتماعية، الدعوية، الشخصية..).

ومع هذه الاعتبارات فإنها دعوة لإدراك أهمية التخطيط والتقييم أولاً ثم معرفة دقائقه وتنفيذ ذلك، وأضع إشارات متواضعة في ذلك:

١. المشاركة في دورات التخطيط والتقييم التربوي والقراءة في المختصرات، واستشارة ذوي الاختصاص تختصر لك امتلاك هذه المهارة.

٢. العجلة في رؤية نتائج مثمرة تقتل العمل أحياناً، وهذا لا يتنافى مع المتابعة والتقييم.

٣. عندما تمتلك خطة تربوية لمن معك على المدى البعيد، وغيره فإنه سيكون من وجودك أثر، و في غيابك عدمية الخطر.

٤. إدراكك لحاجيات من معك، ومعرفة الفرص السانح، وتيقظك للمخاطر القريبة منك تجعل من خطتك نموذجاً صادقاً في تنفيذها.

٥. حين تكون أهدافنا أكثر واقعية، أدق تفاصيلاً، أرقى طموحاً، ويمكن ملاحظتها وقياسها، فإنك تسير نحو منتج تربوي يبقى أثره أمداً بعيداً- بإذن الله-.

٦. متابعة البرنامج التربوي وتقييمه على فترات محددة ومتفاوتة قد تخلق بعض الأجواء وهي صحية بلا شك، كالصراع وتنافر، والنزاع والاختلاف، ولكن ليكن هناك صدر يتسع لذلك على دراية بالطرق المثلى لحل النزاع، وعلاج المشكلة.

٧. سبر أحوال المتربي وحسن التعامل مع جوانب قوته وضعفه عمل ليس باليسير، ومن رام التربية بغير ذلك فهو يقضي وقته فيما لا يعود عليه بالنفع المرجو.

٨. لا يقتصر المربي في خططه مهما كانت على ذاته فالاستخارة ثم الاستخارة، ويأتي مفهوم الاستشارة والاستئناس بآراء من معه وأهل الخبرة فإن ذلك كله يحجر الخطط تحبيراً رائداً- بإذن الله.

أخيراً ليس من دعوتي سوى الإشارة، وإلا فموضوع التخطيط والتقويم مما جفت الأحبار في تدوينه، ولكن يكتفي المرابي بما يُفيد، ويجب عليه أن يكن على دراية في ذلك إذ من الأمانة أن يتحصل المترابي على تربية متوازنة، ومتابعة قويمه.

سابعاً: التوازن والتكامل:

إن اتزان المرابي في أقطار حياته اليومية يصنع انسجاماً متكاملماً في شخصيته المؤثرة، وذلك ينطبع على المترابي وإن لم يتكلف المرابي ذلك، وإن المقصود بالتوازن هو أن يُعطي المرابي لكل شيء حقه، ولا يُطغي جانب على جانب، وإن هذه الصفة وإن كانت في أهميتها أن تعمم على جميع الناس إلا أنها في حق المرابي أعظم. أما التكامل فهو أن يحوي في منظومته الحياتية جميع الأصول اللازمة دون فقدان جانب من الجوانب، وبالتالي فإن تكامل وجود هذه الأصول، مع التوازن في تطبيعتها على الشخصية مطلب رباني، وهو سمة للعظماء، ولعلي أُلقي الضوء على أهم هذه الجوانب:

١. الجانب الإيماني (العبادي):

وهذا هو الزاد الحقيقي، ويستحق أن يُفرد له مبحث في الحديث عن أهميته وأثره، وكيفية التربية عليه والتربية من خلاله. وإن من سر القرآن الكريم يجد إلقاء الضوء على هذا الأمر، ومرادفاته. قال تعالى: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور"، و نجد التوجيه لقيام الليل، والصيام، وتقوى الله في السر والعلن، وغير ذلك.

لذا ينبغي على المرابي على وجه الخصوص نيل المراتب الأولى في هذا الشأن بالذات، وهو على رأس الهرم لبقية الجوانب الأخرى، ولقد نال التوفيق من كانت صلته بالله وثقى.

٢. الجانب الوظيفي:

يشوب النفس السامة حين تجرد المرابي والداعية ذلك المخجل بوظيفته، والذي يكثر الصخب والضوضاء في عمله، بل تعاقبه في صف المتأخرين، يتهرب من المسؤوليات، ولا يربو في اهتماماته وجود أهداف عالية يريد المسابقة فيها! وإن أداء العمل على وجهه الكامل ومحاولة الوصول للمعالي يُعد من أداء الأمانة وإعطاء الحق لأهله، ومن أُعطي الأجرة حوسب. ولقد قال جل وعلا: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها".

٣. الأسري (العائلي):

قال عليه الصلاة والسلام: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"، وقال أيضاً: "استوصوا بالنساء خيراً". وكانت حياة النبي-صلى الله عليه وسلم- مع أزواجه تنبئ عن عظيم رُقي تعامله، وكمال حنانه وعطفه، فهو لا يكاد يخبئ حبه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في مواقف عدة، وكان يهمله شأن ابنته فاطمة-رضي الله عنها-حتى لقد زارها عاجلاً حين طلبته ولم تجده. إن المرابي الرباني هو الذي تكون أسرته من أولويات اهتماماته، إنه يجعل من قول الله تعالى: "وأندر عشيرتك الأقربين" شعاراً يقوده لأن يكون خيراً من يكون خيراً لأهله، وأبنائه وزوجه، إنه يدعو دائماً ويقول: "ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماماً"، لكنه يدعو ونفسه تصبو وتبذل جهدها للعمل بذلك.

٤. الاجتماعي:

قال الرسول-صلى الله عليه وسلم-: "الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على آذاهم"، وإن من أصول ذلك الاجتماع مع الأقارب والجيران، والأصدقاء الدعوة إلى الله لاسيما أن يكون ذلك مع وُد وعطاء هو رائده، وروح طيبة متسامحة هو صاحبها، وحبذا أن يكون الأول مع أقاربه وأرحامه، وأن يكون الفاعل مع مسجده وأهل حيه، وأن يصبح صاحب الوجود المعنوي في قلوب رفاقه وأصدقاء العمل لاسيما إذا صاحب ذلك أهدافاً دعوية يرقى بالمجتمع المحيط به على إثر ذلك، وبئس المرابي الذي نجده يخالف ذلك، لأنه حتماً سيخالف مراد الشارع-سبحانه-.

٥. الصحي والرياضي:

هناك فرق بين الصحة والرياضة مع أنها تصب في منبع واحد، ولكن التباين يفهمه المتلقي، هذا الجانب (الصحي والرياضي) قد يُغفل إلى حد ما من جل الناس، وإن التمسنا هذا الأمر للمرابي فكونه شخصية حيوية في المجتمع، ينبغي لها أن تحمل ثقلاً معلوماتياً في الشأن الصحي والرياضي، ومن ثم يكون ذلك واقعاً لا تنظيراً. إن حاجة المرابي في التزامه بجوانب صحية ورياضية أن يبقى أثر ذلك في عبادته، وقيامه بالأنشطة والبرامج على وجه صحيح، وبطريقة حيوية، ولقد قال عليه الصلاة والسلام: "المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير"، ولقد قال-عليه الصلاة والسلام- مادحاً نفراً من أصحابه: "خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة". ونعلم كلمة عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-الخالدة: (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل).

إنها دعوة أن يُضفي المرابي لبرنامجهِ الصحي والرياضي مساراً جديداً يكون بالاهتمام بصحته في الغذاء والتعرف على العادات الحسنة من السيئة في جوانب الحياة، وأن يلتزم برياضة محبة كالمشي، والجري، وغيرها ليمارسها، ويكون نشيطاً ذرباً في طاعة المولى جلّ وعلا.

٦. المهاري (الشخصي):

ينبغي لكل مرابي أن يكون له بصمته المهارية المميزة لشخصه، كالإلقاء، أو التأليف، والتدريب، أو الإعلام وغير ذلك، ومن ثم يطور هذه الميزة ويرعاها ويفيد ويستفيد منها، وقد أخرج الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرحم أممي بأمتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" السلسلة الصحيحة. وهذا دليل محض على أهمية ذلك، فلا يكون المرابي عالمة على إخوانه في كل شيء، فلا بد له على الأقل أن يكون خادماً في ثغرة لها نتاج يعود على الأمة بالنعف والفائدة. فليهتم المرابي بذلك، وليبدأ صفحته مع موهبته وليصقلها جيداً، فمن العيب أن يصقل غيره، وهو خام لم يُعرف حتى الآن ما معدنه!

هذا ما تيسر رسمه واجتمع عقده وفيه الخير بإذن الله، والمهم هو أن تكون حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً حاضراً في حياة المرابي لا يغيب عنه في هديه وعبادته وكل سلوكه.